

## نحو تصحيح المنهج في تناول القضية الفلسطينية

ما أكثر ما كتب وقيل حول القضية الفلسطينية، فقد استهلكت من الحبر والورق أكثر من كل القضايا المماثلة، ومعركة الكلمات بين معسكر الانصار والاعداء وكذلك داخل المعسكر الواحد مفتوحة منذ بداية هذا القرن. لذلك لا تبدو هناك أية حاجة الى اضافة كمية من الحديث عن القضية الفلسطينية، بل الى منهج عربي جديد في تناولها كجزء من عملية مراجعة شاملة تساعد على الخروج بها من مأزقها الراهن.

ان نظرة سريعة الى المعركة الاعلامية الدائرة حول فلسطين تظهر هشاشة المنهج العربي في تناول القضية الفلسطينية، بالمقارنة مع المنهج الصهيوني المقابل. فالمنهج الصهيوني يظهر بشكل متكامل من خلال سياسة اسرائيل الاعلامية ومن خلفها الاجهزة الغربية الدائرة في فلكها، هذه السياسة التي تتمحور حول تقديم أنسب الصيغ للمشروع الصهيوني وبثها على مستويات مختلفة. ففي الاوساط الصهيونية داخل الارض المحتلة وخارجها، يوجه الخطاب الصهيوني بهدف المزيد من التعبئة والتحريض والتحذير من الخطر العربي. أما باتجاه الرأي العام، فيوجه الخطاب من أجل المزيد من التعاطف وتشويه صورة الانسان العربي ومواقفه. وحتى الاوساط العربية لها نصيب من الخطاب الصهيوني، لاشيء الا لزرع التفرقة وروح الهزيمة والاحباط.

هذه السياسة الاعلامية محكمة العناصر، محددة الاهداف، متطورة الاساليب ومتجانسة مع الخطط الصهيونية الاخرى في السياسة والاقتصاد والحرب. أما المنهج العربي، موضوع هذا التحليل، المتمثل في شقه الاول بمحاولات منظمة التحرير الفلسطينية وأنصارها الرد على بعض المواقف الصهيونية في أوساط

الرأى العام أو الخطاب الموجه الى الاوساط العربية بهدف تبرير الوجود والدفاع عن شرعية العمل . . هذا المنهج لا يصل في أى من الاحوال الى مرحلة الاعلام الهجومي الموجه الى الاوساط الصهيونية نفسها .

أما الشق الثاني من المنهج العربي، فيتمثل بالحملات الموجهة الى الاوساط الفلسطينية والعربية من قبل أطراف فلسطينية وعربية ترفع شعار الحرص على القضية الفلسطينية، بل تقدم نفسها كطليعة للعمل من أجلها . ان طبيعة هذا الاتجاه تتمثل في التطرف يمينا أو يسارا، أما خطورته فتكمن في أنه اختلط بالموقف العربي العام وطمى عليه، اما باتجاه تبرير أخطاء م . ت . ف بدعوى الدفاع عن الشرعية والاستقلالية، أو باتجاه تحطيمها باسم الثورة والتقدمية .

ان كلا المنهجين يلتقيان في تضليل الانسان العربي وهدر طاقاته وتشثيت جهوده، كما يلتقيان في وضع الانزلاق باتجاه الخط الصهيوني العام الذى يعتبر تعطل الجبهة الداخلية العربية وتأكلها أهم أسباب انتصاره واستمراره .

ان الحاجة تبدو ملحّة أكثر من أى وقت مضى الى تصحيح المنهج العربي في تناول القضية الفلسطينية، وهو ما يحتاج الى جهد جماعي ودراسات نقدية معمقة لا يشكل هذا النص الا مقدمة متواضعة لها . وفي انتظار انجاز هذا المشروع الكبير، سنحاول استعراض أهم المحاور الرئيسية التي يمكن أن تقام عليها عملية التصحيح المقترحة .

## ١ - طبيعة الصراع

منذ أن تركزت فكرة الدولة القومية في أوروبا كأساس للتنظيم السياسي، ظهرت من حديد المسألة اليهودية المتمثلة في صعوبات التعايش والاندماج لفئة من اليهود في المجتمع المسيحي، هذه الظاهرة المتعددة الاسباب والمظاهر تفاقمت في ظل التوجه الاوروبي لتنظيم الحياة السياسية في شكل يتطابق فيه مفهوم الامة على مفهوم الشعب ليشكل أساسا لشرعية الدولة ومصدر سلطتها .

وقد أثير الجدل في ذلك الوقت حول ما اذا كان اليهود يشكلون جزءا من الامم التي يعيشون فيها . وقد ظهرت تيارات في أوروبا ترد بالنفي وتعتبرهم خارج جسم الامة ولا يحملون فيها، وصادف ذلك وجود الرغبة الاوروبية بالتوسع الاستعماري عن طريق المهجرة والسيطرة على المناطق الغنية أو الاستراتيجية في آسيا وافريقيا، مما أعطى مفهوم المهجرة الاستعمارية مبررا أخلاقيا ودوافع سياسية واقتصادية . لقد كانت هذه الاحواء القومية الاستعمارية ملائمة لحلم بعض اليهود في التخلص من

مشاكلهم بأوروبا والحياة في دولة يهودية مستقلة، وهو ما تبلور على شكل حركة سياسية يهودية : الصهيونية .

لقد عبرت الايديولوجية الصهيونية عن نفسها وما زالت أن هدفها هو اقامة دولة لكل اليهود على كل فلسطين، كيفما كانت الوسائل ودون الاخذ بالاعتبار حقوق سكانها العرب الفلسطينيين .

وبعد قيامها عام ١٩٤٨، بقيت اسرايل أمينة لهذا المبدأ وكرسته عمليا بالتوسع والعدوان . اذن فطبيعة الصراع مع الصهيونية مصيري لا مهادنة فيه، دائم بدوام الفكر الصهيوني داخل أو خارج فلسطين، صراع يأخذ كل الاشكال آنيا ومستقبلا .

## ٢ - ظروف الصراع

مع بداية هذا القرن تفجر الوعي القومي لدى الشعوب الراضحة نحت نير الاستعمار وارتفعت دعوات التحرر والاستقلال، وهكذا كان الشأن بالنسبة للوطن العربي الذى دخل جناحه الشرقي الحرب العالمية الاولى الى جانب أوروبا ضد تركيا على أمل اقامة الدولة العربية الموحدة . ولكن الدول الاوروبية كانت لها حساباتها وأطماعها الاستعمارية، فكانت قد احتلت الشرق العربي بموجب اتفاقية ساكس - بيكو بين فرنسا وبريطانيا ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وتعهدت بريطانيا على لسان وزير خارجيتها بلفور بمساعدة اليهود على اقامة وطن قومي لهم في فلسطين .

وعلى أنقاض الحلم بالدولة العربية الموحدة، تركز التقسيم الاستعماري لياخذ شكل كيانات عربية ذات أنظمة سياسية عائلية/ عشائرية مرتبطة بصانعيها لا هم لها الا الدفاع عن حدودها واستمرارها، الامر الذى أذكى نار التنافس والصراع بين أبناء الشعب الواحد وخلق مسيرات مختلفة من التطور الاجتماعي والثقافة السياسية شكلت بالتدريج محورا للانتماء بدلا عن الشعور القومي .

أما الشعب العربي الفلسطيني الذى كان عليه أن يواجه الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني معا، فلم يتحقق له أى مستوى من الكيانية السياسية .

في عام ١٩٤٨، استطاعت الحركة الصهيونية اقامة كيانها الاستعماري في فلسطين مستفيدة من الدعم الاستعماري ومن غياب المواجهة العربية الكافية . وانتهت هذه الجولة باقتسام فلسطين بين الحركة الصهيونية وامارة شرق الاردن ومصر . وتشثت الشعب الفلسطيني بين هذه الكيانات الثلاث وفي عشرات من مخيمات

اللاجئين يعيش حالة من اليأس والغربة، فصعبت عليه ظروف الصراع، وغيّبت هويته وأدخلت قضيته عام النسيان!.

### ٣- وسائل الصراع

لم يطل الوقت حتى عادت الصحوّة للشعب الفلسطيني وعاد يبحث عن ذاته من جديد، حيث نشطت حركته السياسية في نهاية الخمسينات وتمحورت حول خيارين رئيسيين:

الأول: الانخراط في الأحزاب السياسية العربية القائمة (بعث، قوميين، اخوان مسلمين، شيوعيين) والعمل من خلالها لاجداث تغيير في الواقع العربي باتجاه النهضة والتحرير. وقد كانت لهذا الاتجاه مبرراته: ان طبيعة الصراع تستدعي تعبئة القوى العربية ولا يمكن تعبئتها الا من خلال أطرها ومنظماتها وأنظمتها "التقدمية"، وأن تحسّن الوضع العربي سينعكس على القدرات العسكرية العربية التي ستتولى تحرير فلسطين.

الثاني: انشاء تنظيمات فلسطينية مستقلة تتولى الكفاح المسلح ضد اسرائيل بعد أن تبين عجز الانظمة العربية وسليبتها، من خلال طبيعة علاقتها مع شعوبها وارتباطاتها الخارجية. ولقد اعتمد هذا الخيار على الكفاح المسلح كطريقة لتعبئة الجماهير العربية وللتعبير عن الهوية الفلسطينية المهدهة بالذوبان.

ان التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية والعالم أجمع في بداية الستينات، من فشل محاولات الوحدة والانتصارات التي تحققت في الجزائر وفيتنام، دعمت الخيار الفلسطيني الثاني لدى الجماهير الفلسطينية والعربية ودفعت الدول العربية الى البحث عن خلق وسيلة للصراع مع اسرائيل تعفيها من سوء وولية الحرب المباشرة وتبرر لها تخاذلها أمام جماهيرها وتحتوى ظاهرة الكفاح المسلح التي بدأت تظهر على السطح.

بهذه الدوافع، عملت الدول العربية في مؤتمرات القمة الاول - ١٩٦٤ - على انشاء منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة الشقيرى. لقد بدأت المنظمة حياتها عرضة للرفض والقبول والتجاذب بين الدول العربية. وقد كانت شرعيتها وامكانياتها محدودة باتفاق الدول العربية أو قدرة الشقيرى على التملص من القيود العربية والتحايل عليها. وقد زاد وضع المنظمة صعوبة معارضتها من قبل اتجاه الكفاح المسلح، مما خلق حالة من عدم التطابق والانسجام بين الشرعية السياسية التي تمثلها المنظمة والشرعية النضالية التي تمثلها فتح.

الا أن حرب ١٩٦٧، قد أضافت معطيات جديدة لصالح الكفاح المسلح، حين أصبح في صدام مباشر ويومي مع العدو الصهيوني، وبعد أن حاولت معظم الدول العربية تبرير فشلها في الحرب بدعم حركة المقاومة والمشاركة فيها. ولقد تطورت وسيلة الصراع الفلسطينية حين انتخب ياسر عرفات على رأس منظمة التحرير، الامر الذي أدخل الصراع بكل مستوياته الى مرحلة جديدة.

### ٤- الوضع الراهن للصراع

بعد عام ١٩٦٩، دخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة، فلقد أصبح لأول مرة نظام سياسي فلسطيني يجمع تنظيميا كل القوى السياسية العاملة في الساحة الفلسطينية وله الحد الأدنى من الالية السياسية في تحديد الاهداف المرحلية وصياغة السياسات العامة للوصول اليها. ولكن نقطة البداية في تحليل الوضع الراهن هي أنه كلما تقدمت منظمة التحرير في لعب دور النظام الممثل للشعب الفلسطيني، تقدمت معها صعوبة عملها وثقل مهامها. فقد ورثت المنظمة بشكلها الجديد الحلم الفلسطيني بالتحريك الكامل، وألقت الدول والتنظيمات العربية على عاتق المنظمة هذه المسؤولة، بينما لم تستطع المنظمة بامكانياتها المحدودة القيام بهذا الدور أو التقدم نحوه، وهو ما يلخص مأزقها الراهن الذي يتمثل في المستويات التالية:

- الوضع الدولي: لم تعد القضايا الكبرى من حجم القضية الفلسطينية ملكا لاصحابها فقط، فنحن نعيش في نظام دولي تحكمه التحالفات وموازين القوى. وقد استطاعت اسرائيل، نظرا لجذورها الاوروبية وطبيعتها الاستعمارية، التحالف مع معسكر الغرب الذي يرى في وجودها تكفيرا عن موقفه الشوفيني نحو اليهود، كما يرى فيها امتدادا لثقافته وحضارته، وموقعا متقدما للدفاع عن مصالحه عند الحاجة. وقد تمكنت اسرائيل فعلا من توفير القدر الكافي من الدعم الاوروبي لسلوكها العدواني أو السكوت عليه. كل ذلك بفضل الدعم والتغطية الامريكية لهذا السلوك.

وفي المقابل، ليس لدى منظمة التحرير الفلسطينية أى مصالح جغرافية أو اقتصادية تغرى الاوروبيين ويمكن الضغط عليهم بها، بينما استحال توظيف الامكانيات العربية مجتمعة بسبب الخلافات العربية أو النكاية بالمنظمة أو لضعف وتخاذل بعض الانظمة العربية وتحالف بعضها الاخر مع المعسكر الغربي تحالفا واضحا. أما المعسكر الاشتراكي، فرغم موقفه المتضامن مع القضية الفلسطينية، الا أن دوره بقي محدودا جدا في هذا المجال، سواء لهزالة الموقف العربي، أو القيود

– الوضع العربي: شكلت القضية الفلسطينية منذ البداية عاملاً رئيسياً في السياسة العربية وما تزال، حيث تشكل نقطة تقاطع مصالح الانظمة العربية على تناقضها، ومادة رئيسية لشعارات وحملات هذه الانظمة. كما شكلت القضية الفلسطينية نقطة التقاء مشاعر ونضالات الجماهير العربية التي كانت وستبقى ودية لهذه القضية، قضيتها الاولى.

ولكن مع الاسف، تبقى امكانيات الجماهير العربية لدعم القضية الفلسطينية حبيسة أوضاعها الاقليمية المتسمة بالقيود الرسمية ومصاعب الحياة اليومية. • ليبقى الدور الرئيسي للحكومات تتعامل مع القضية من موقع الحذر تارة أو التوظيف والاحتواء تارة أخرى، دون الوصول الى الدعم المنتظر الذي يحتاجه الفلسطينيون في معركتهم الكبرى.

لقد بقيت المنظمة طيلة حياتها أسيرة هذا الوضع العربي، تحاول التوفيق بين التعامل مع المحيط العربي كضرورة وظيفية وكأمل في تحقيق العمق العربي الثوري من ناحية وبين الحفاظ على استقلاليتها في مواجهة محاولات التخريب والاحتواء دون الوصول الى القطيعة من ناحية ثانية. وقد نجحت المنظمة في تخطي الكثير من العقبات في هذا المجال بشيء من الخسائر، إلا أن خطورة هذا الوضع تكمن في تأثيره على البنية الداخلية للمنظمة التي شكلت ألغاما موقوتة تنفجر بالمناسبات.

ولقد تعقد الامر بعد خروج مصر من الساحة العربية واشتعال الحرب العراقية الايرانية، حيث ضاقت حدود اللعبة لتتحوصل في النهاية بين سوريا والاردن. وهكذا، فان غياب التضامن العربي من حول القضية الفلسطينية ينعكس سلباً على وضعها الدولي وعلى وضعها الداخلي.

– الوضع الفلسطيني: ان الوضع الدولي والعربي قد حطاً بثقلهما على الوضع الفلسطيني الداخلي. فبعد خروج المنظمة من لبنان، الموقع الاخير الذي يمكن التعبير فيه لارادة فلسطين، امتد الشتات الجغرافي للحركة الفلسطينية الى شتات سياسي، حيث أصبحت بعض الدول المضيفة أكثر قدرة على التأثير على أطراف فلسطينية لتوظيفها وأصبح الطرف مناسباً للتعبير عن عدم الاتفاق بشكل قطيعة تغذيها الرغبة في الانتقام والطموح الى القيادة.

ومن الجانب الاخر، تعطلت حركة التفاعل السياسي داخل الاطر التنظيمية

الفلسطينية، الامر الذي كرس ظاهرة التشخيص ورفع احتمالات الوقوع في الاخطاء والممارسات المنفردة. ان الوضع الفلسطيني اليوم يعيش حالة من الغموض والفضوض أشبه بمرحلة الخمسينات، من حيث محدودية مشاركة الفرد الفلسطيني في صنع مستقبله، واشتداد الحصار العربي الرسمي، وتهيئة الظروف العامة لتمير المشروع الصهيوني.

ورغم كل هذا، يبقى المكسب الرئيسي من تجربة السنوات الماضية مجسداً في الهوية الوطنية المستقلة التي اكتسبها الانسان الفلسطيني، وهو على استعداد للحفاظ عليها والتصدي لكل من يهددها أو يسيء اليها، سواء باسم الشرعية أو الثورية.

\* \* \*

لقد أثبتت تجربة الثورة الفلسطينية أن قضايا الشعوب الكبرى يجب أن تنطلق من الانسان نفسه، بأن يكون على مستوى من القناعة والتعبئة والوعي بمشكلته: أسبابها وماهيتها وطريقة حلها، وأن تتوفر له وبمشاركته أفضل الظروف لتكتيل جهوده وصيها في استراتيجية محكمة لتحرير الارض والانسان... كل هذا قد يبدو بديهياً ولكن الاهم من ذلك، هو القدرة والشجاعة على متابعة ما تم الاجماع عليه من مكاسب وأهداف واضحة، وتقييم حصيلة المسيرة النضالية وتكييفها حسب المستجدات وضمن الارادة الوطنية الجماعية.

ان حجم الصعوبات التي واجهتها منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن وحدها هي السبب في المأزق الحالي، بل ان جزءاً من المسوءولية يقع على عاتق المنظمة نفسها، حين أهملت أهمية دور الانسان الفلسطيني واكتفت بالحد الأدنى من المشاركة الفلسطينية وعوضتها بأوهام ثورة المناورات والتاكتيكات السياسية الظرفية التي ينتهي مفعولها بانتهاء التناقضات العربية التي قامت على أساسها... ان تصحيح المنهج يقتضي اعادة تقييم الواقع والاعتماد أكثر على الانسان الحر الواعي المشارك في تنظيم ديمقراطي هو صانعه وحاميه، تنظيم يعتمد كل وسائل النضال بدون خلط أو وهم في الاهداف والتحالفات والوسائل.

أبو الحكم